الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه

دراسة تحليلية في ضوء نصوص القرآن والسنة

إعداد الدكتور

فهد صالح ناصر محمد الخنة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة الكويت

الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه دراسة تحليلية في ضوء نصوص القرآن والسنة

فهد صالح ناصر محمد الخنة

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر الشريف

البريد الجامعي: Drfahdsaleh@gmail.com

الملخص:

إن الأدب مع الله ﷻ من أجل المباحث التي تستحق الدراسة والنظر، فإنه يتعلق بتوحيد الله ﷻ وبالتفويض إليه باطنا، كما يتعلق بتوقيره ومعرفة حقه ﷻ في الظاهر، فكثيرًا ما يتجاوز العباد الأدب مع الله ﷻ إما لعدم مراقبته أو لعدم معرفة هذا الأدب، أو لسوء الظن بالله تعالى وضعف التوكل عليه؛ ولهذا فإن هذا الأدب حري بالكتابة فيه والتنويه بقدره وتفصيل الفقه اللازم له؛ ليقع العباد موقعهم من العبودية الحقة، والتذلل الخالص، والإخبات التام لمالك الملك ﷻ، ويهدف البحث إلى إيضاح مظاهر الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه، وإبراز معالمه في حسن الظن والتفويض، وبيان بعض مظاهر التجاوز في الأدب مع الله ﷻ. وتتجلى أهمية هذه الدراسة من موضوعها الذي هو الأدب مع الله ﷻ من خلال كتابه الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي ضوء ذلك أذكر معالم أهميتها: أنها دراسة تتناول الأدب مع الله سبحانه فهي تتعلق بالتوحيد الباطن والظاهر على حد سواء، وتحدد الصورة التي يجب أن يكون عليها المؤمن الذي يتحقق بالأدب. وأنها دراسة تأصيلية تعتمد الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واجتهادات علماء الإسلام ومفكريه في تقرير قضية الأدب مع الله سبحانه،

الكلمات المفتاحية: الأدب، التسليم، المعبود، التوحيد، التنزيه.

Etiquette with God in Monotheism and Transcendence: An Analytical Study in Light of the Texts of the Qur'an and Sunnah

Fahd Saleh Nasser Muhammad Al-Khanna
Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, Faculty of Fundamentals of Religion, Al-Azhar University
University Email: Drfahdsaleh@gmail.com

abstract:
Etiquette with God is one of the topics that deserves study and consideration, as it relates to the monotheism of God and entrusting Him inwardly, as it relates to revering Him and knowing His right outwardly. Servants often go beyond etiquette with God, either because they do not observe Him or do not know this etiquette, or because of bad opinion of God Almighty and weak reliance on Him; therefore, this etiquette deserves to be written about, its value highlighted, and the necessary jurisprudence detailed for it; So that the servants may attain their true servitude, pure humility, and complete submission to the Owner of the Kingdom. The research aims to clarify the manifestations of good manners with Allah in monotheism and transcendence, and to highlight its features in good opinion and delegation, and to clarify some of the manifestations of transgression in good manners with Allah. The importance of this study is evident from its subject, which is good manners with Allah, through His Holy Book and the Sunnah of His Messenger, may Allah bless him and grant him peace. In light of that, I mention the features of its importance: It is a study that deals with good manners with Allah, the Almighty, as it relates to both internal and external monotheism, and determines the image that the believer who achieves good manners should be. It is an authentic study that relies on the verses of the Qur'an, authentic hadiths, and the efforts of Islamic scholars and thinkers in determining the issue of good manners with Allah, the Almighty.

Keywords: good manners, submission, the worshipped, monotheism, transcendence.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،،

فإن الأدب مع الله ﷻ من أجل المباحث التي تستحق الدراسة والنظر، فإنه يتعلق بتوحيد الله ﷻ وبالتفويض إليه باطنا، كما يتعلق بتوقيره ومعرفة حقه ﷻ في الظاهر، فكثيرًا ما يتجاوز العباد الأدب مع الله ﷻ إما لعدم مراقبته أو لعدم معرفة هذا الأدب، أو لسوء الظن بالله تعالى وضعف التوكل عليه؛ ولهذا فإن هذا الأدب حري بالكتابة فيه والتنويه بقدره وتفصيل الفقه اللازم له؛ ليقع العباد موقعهم من العبودية الحقة، والتذلل الخالص، والإخبات التام لمالك الملك ﷻ.

إن الأدب مع الله ﷻ لشرفه وعظم منزلته – لا يكفي أن يكون جملة من المباحث طي كتاب من الكتب أو بحث من البحوث، بل يجب أن يستقر في الضمائر ويظهر في حركات اللسان وخفقات الجوارح، وهذا يعيدنا إلى ضرورة العناية بهذا الهدف والكتابة فيه وتحرير فقهه تحريرا لا تلتبس معه الأفهام ولا تختلف معه الأفكار.

ومن أجل هذا وقع اختياري على موضوع الأدب مع الله ﷻ واستهلمت كتاب الله ﷻ في تحرير هذه المباحث، فهو خير معلم وخير هاد ولا غرو فهو كلام رب العالمين وهدي أحكم الحاكمين، ثم امتحت من معين السنة النبوية التي قامت بمهمة البيان خير قيام حتى وضح طريق الأدب مع المولى تبارك وتعالى ولاحت قسماته، والله أسأل أن ينفعني به قبل قارئ يقرؤه، وباحث يستأنس به، وطالب علم يهتدي إليه.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١. إيضاح مظاهر الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه.

٢. إبراز معالم الأدب مع الله في حسن الظن والتفويض.

٣. بيان بعض مظاهر التجاوز في الأدب مع الله ﷻ.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية هذه الدراسة من موضوعها الذي هو الأدب مع الله ﷻ من خلال كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ وفي ضوء ذلك أذكر معالم أهميتها:

- أنها دراسة تتناول الأدب مع الله سبحانه فهي تتعلق بالتوحيد الباطن والظاهر على حد سواء، وتحدد الصورة التي يجب أن يكون عليها المؤمن الذي يتحقق بالأدب.
- أنها دراسة تأصيلية تعتمد الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واجتهادات علماء الإسلام ومفكريه في تقرير قضية الأدب مع الله سبحانه.
- أنها تحدد معالم الأدب مع الله ﷻ على مستوى التوحيد والتفويض ومستوى الدعاء وأعمال القلوب، كما تحذِّر من بعض التجاوزات التي قد يقع فيها العباد وقد لا يدرون بذلك.

خطة الدراسة:

مقدمة

المبحث الأول: مفهوم الأدب وأهمية الأدب مع الله للمسلم.

المطلب الأول: مفهوم الأدب.

المطلب الثاني: أهمية الأدب مع الله للمسلم.

المبحث الثاني: الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه

المطلب الأول: الأدب مع الله بتوحيده

المطلب الثاني: نسبة الخير إليه والشر إلى غيره

المطلب الثالث: وصفه سبحانه بما يليق به وتنزيهه عن كل نقص

خاتمة

المبحث الأول

مفهوم الأدب وأهمية الأدب مع الله للمسلم.

المطلب الأول: في بيان مفهوم الأدب

١- الأدب في اللغة:

كلمة الأدب من الكلمات التي تطورت دلالتها منذ ابتداء إطلاقها على الدعوة إلى الطعام وإعداد المأدبة إلى أن انتهى بها الأمر للدلالة على فن خاص من الأنشطة الإنسانية وهو فن الأدب وهو الكلام الإنشائي البليغ الذى يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعرا أم نثرا(١).

ومع ذلك لا يصعب تحديد إطلاقات هذه الكلمة بحسب السياق والعلم التي تستخدم فيه، فلم تزل الكلمة تطلق على المعاني اللغوية الأولى إلى جانب إطلاقات اصطلاحية تعرف بحسب الحقل الذي تذكر فيه أو سياق الكلام.

قال ابن فارس: "الهمزة والدال والباء أصل واحد تتفرع مسائله وترجع إليه: فالأدب أن تجمع الناس إلى طعامك. وهي المأدبة والمأدبة. والآدب الداعي... ومن هذا القياس الأدب أيضا، لأنه مجمع على استحسانه" (٢).

فالأدب على هذا مصدر أَدَب القوم يأدِبهم بالكسر، إذا دَعاهُمْ إلى طعامِه. والآدِبُ: الداعي... ويقال أيضًا: آدَبَ القَوْمَ إلى طعامه يؤدبهم إيدابا، واسم الطعام المأدبة

---

(١) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥ م (١/ ٧).

(٢) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م. (١/ ٧٤) مادة (أ، د، ب).

والمأدبة[١].

ثم استعير الأدب إلى المستحسن وعمم ليشمل الأخلاق الفاضلة بجامع الاستحسان، أو بجامع أن الأدب يدعى إليه أو لأنه يدعو إلى المحامد، وعلى كلٍ فقد صار الأدب يطلق على الأخلاق الفاضلة بصفة عامة وما يؤدي إليها من رياضة أو تعليم أو وحي، وهذا كما يقال: "أَدُبَ الرجُلُ بالضم فهو أَديبٌ، وأَدَّبْتُهُ فَتأَدَّبَ. وابن فلان قد استأدَبَ، في معنى تأدب"[٢].

قال أبو زيد الأنصاري: "الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل". قال الفيومي عقبه: "فالأدب اسم لذلك والجمع آداب مثل سبب وأسباب وأدبته تأديبا مبالغة وتكثيرٌ، ومنه قيل أدبته تأديبًا إذا عاقبته على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب" [٣].

٢- الأدب في الاصطلاح:

تباينت تعريفات العلماء للأدب بحسب الاستعمالات المختلفة لهذه المادة بجامع الحسن الذي سبقت الإشارة إليه ومراعاة لكون العلم جانبا ملازما لها فلا يكون الأدب إلا عن رياضة وعلم وتحرٍّ لأحسن الأساليب قولا وفعلا. معين من جوانب تعلقات هذا اللفظ. وإطلاقات الأدب قد لا تتعدى العلم، والثقافة، والرعاية، والتعجّب، والطريقة المقبولة

---

(١) الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م (١/ ٨٦) مادة (أ، د، ب).

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، المكتبة العلمية – بيروت (١/ ٩).

(٣) الصحاح (١/ ٨٦) مادة (أ، د، ب).

والصالحة، ورعاية حدّ كل شيء، إلى جانب إطلاقه خاصة على "علم من علوم العربية يتعلّق بالفصاحة والبلاغة"[١].

لكن الأدب في تخصيصه بالسلوك الإنساني سواء في عمومه مرادفا للأخلاق القويمة، أو في بعض جوانبه كأدب القاضي وأدب العالم والمتعلم وأدب المناظرة وغيرها، هذا الإطلاق يجعله يدل على الخصال التي يجب أن يُتَمَّسكَ بها في هذه الحالة أو تلك، أو على وجه العموم ليحوز الشخص مرتبة الفضيلة والورع واللياقة.

ومراعاة لهذا الجانب أطلق الأدب على" كلّ رياضة محمودة فيخرج بها الإنسان إلى فضيلة من الفضائل ". كما أطلق على الملكة فعرف بأنه" ملكة تعصم من قامت به عمّا يشينه"[٢].

ومقتضى هذا التعريف الأخير أن ما لا يكون صفة راسخة في النفس يصدر عن طبعة وسجية دون تأمل ومحاولة لا يسمى أدبا[٣].

وكيفما كانت طبيعة الأدب ملكة أو رياضة فهو تمسك بالأخلاق الفاضلة والقيم الحسنة والمعاملات المستقيمة ومراعاة حق كل حق ومقام كل ذي مقام، ولهذا قيل: الأدب هو" استعمال ما يحمد قولا وفعلا "، وقيل:" الأخذ بمكارم الأخلاق "، وقيل:" الوقوف

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م (١/ ١٢٧).

(٢) العناية شرح الهداية، : ، أكمل الدين البابرتي، دار الفكر (٧/ ٢٥١).

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة: الثانية (٦/ ٢٧٧).

مع المستحسنات "، كما قيل:" معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ "[١].

وكل هذه التعريفات تشير إلى أن الأدب اتِّباع الأخلاق الحميدة والخصال الفاضلة في معاملة الخالق والمخلوق، ومراعاة أصول اللياقة بكل جانب من جوانب الحياة، وتحري ما يُحمد من الأقوال والأفعال والخصال والشمائل، ومن حاز الأخلاق الحميدة وتجهَّز للأعمال بالمقومات والمؤهلات المناسبة لها؛ عُدَّ من هذا الجانب أديبًا.

فالأدب منه ما هو عام في المعاملة كآداب المؤاكلة والسلام واللقاء والدخول والخروج والقيام والقعود، ومنه ما خاص ببعض أرباب الصنائع كآداب النديم، وآداب البحث والمناظرة، وآداب القضاة أي ما يجب عليهم فعله وما يجب ألا يفعلوه؛ ليتحقق العدل ويرتفع الظلم[٢].

فالأدب يطلق ويقيد وفي إطلاقه يدل على الأخلاق الفاضلة وفي تقييده يراعى ما قيد من أجله.

ويُخصَّص مضمون الأدب في بعض عبارات الصوفية، للتعبير عن التجربة الروحية الشخصية، فنجد عبارات لبعض الصوفية تخصص الأدب بدخول حال من الأحوال أو

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة (٢/ ٤٤٦) والتعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م (ص: ١٥) وفتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ (١٠/ ٤٠٠) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد بن موسى العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت (٢٢/ ٨٠).

(٢) ينظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٦/ ٢٧٧) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٢٨).

مراعاة شيء بعينه من آداب الطريق كما في تعريف بعضهم الأدب بأنه" الخروج من صدق الاختيار والتضرّع على بساط الافتقار وكما في قوله بعضهم: "ليس الأدب في كسب الأعمال التّعبدية ولا السعي في طلب الحق، بل التواضع إلى حدّ التراب، وما عدا ذلك فقلّة أدب"[1]، وقله بعضهم: "الأدب تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك" [2].

وهذا كما يظهر ليس تعبيرا عن حقيقة الأدب وحده بقدر ما هو إشادة بحال من الأحوال يرى صاحبه من خلال تجربته أنه أسنى الأحوال وأعلى المقامات، أو هو تعريف ببعض أفراد المعين كما لو ما القرآن فيقال: هو العقيدة الحقة، فالقرآن كذلك هو الشريعة الصالحة والهدي الرشيد وغير ذلك مما لا ينقضي مع الأزمان والعصور.

الأدب والسنة:

قد يخصّص مضمون الأدب كذلك عندما يقترن ببعض الألفاظ الاصطلاحية كالسنة والندب في الفقه أو في أصول الفقه، ويراد به حينئذ ما هو أنزل درجة من السنة. قال التهانوي: "وقد يطلقه الفقهاء على المندوب في جامع الرموز:" وما وراء ما ذكر من الفرائض والواجبات في الحجّ سنن تاركها مسيء، وآداب تاركها غير مسيء "وقد يطلقونه على السّنة في جامع الرموز في بيان العمرة:" وما سوى ذلك سنن وآداب تاركها مسيء ". وفي البزازية في كتاب الصلاة في الفصل الثاني:" الأدب ما فعله الشارع مرة وتركه أخرى، والسنة ما واظب عليه الشارع، والواجب ما شرع لإكمال الفرض، والسنة لإكمال الواجب، والأدب لإكمال السنة "[3].

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٢٨).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٦).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٢٨).

وهكذا يتقاطع الأدب مع مفهوم السنة والمندوب أو يتصل بهما بطرف حيث يطلق على الهيئات التحسينية التي لا يعتبر تاركها مسيئا.

مفهوم الأدب مع الله ﷻ:

الأدب مع الله وفقا لتعريف الأدب سابقا، هو الخلق اللائق بالله سبحانه اعتقادا ومعاملة وظنا واتباعا، ليشمل ذلك ما يليق بحقه سبحانه في جانب الاعتقاد وفي جانب المعاملة الباطنة والتعبد الظاهر، إلى جانب حسن الظن به سبحانه والتوكل عليه، ويشمل هذا الأدب حقائق كثيرة ومتنوعة وأخلاق متعددة تعرف من تدبر آيات الكتاب العزيز والاستزادة الدائمة من العلم بشريعة الله ومعالم دينه، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه وهو يوحى إليه بألا ينقطع عن الاستزادة من العلم فأمره بأن يدعو قائلا: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤].

المطلب الثاني: أهمية الأدب مع الله للمسلم.

إن الأدب بكل مستوياته ومتعلِّقاته واجبٌ ومتأكِّد في حق المسلم، خاصةً ما يكون في معاملة الله تعالى، وتكرار الإشادة بالخُلُق الحسن وبيان ثوابه وقيمته للمسلم غنيٌّ عن البيان والتعريف، ويكفي في معرفة ثوابته ما رواه جابر عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا»(١).

وقد جعل القرآن الكريم جوانب الأدب مع الناس والأسرة والمجتمع والخالق مجامع الحكمة حينما وصف امتنانه على لقمان بالحكمة، وذكر ما وصى به هذا العبد الصالح ولده من بعده وذلك في الآيات الكريمات: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ

(١) أخرجه أحمد مسند، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (١١/ ٣٤٧) حديث رقم (٦٧٣٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨/ ٢١): "إسناده جيد".

اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)} [لقمان: ١٢].

فهذا الآيات الكريمة نهت عن الشرك فقرَّرت أول أدب مع الله سبحانه، ثم أمرت بحسن معاملة الوالدين، ثم نوَّهت إلى حسن المراقبة وتفقُّد الأعمال، ثم تعرَّضت لبعض الآداب الاجتماعية التي يحسن بها قيام المجتمع ويتسق نظامه.

وهي جُمَلٌ من العظات والوصايا تنمُّ عن أهمية الأدب وعن قيمته للفرد والمجتمع، ولهذا جُعِل أثرًا للحكمة التي هي قانون الإصابة ودستور الخلق الحسن؛ لأنها جمعت بين العقيدة الصحيحة والشريعة العادلة والأخلاق الفاضلة[١]. وهذا هو مقتضى الحكمة التي أنعم الله بها على عبده لقمان والتي تتضمن معاني العلم الصائب والإيمان بالحق والإذعان له وطلبه، والعمل على وفق ما علم، وإرشاد الناس إلى المنهاج المستقيم[٢]؛ ولهذا قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥].

فالأدب متأكد في حق المسلم بجماع الأدلة الشرعية المختلفة، أما عن أهميته في حق الله تعالى فهي ما يلي:

١ – أن الأدب عاصمٌ من الزلل في حق الله وما يجب له من توحيد وتنزيه:

فإذا لم يعرفِ المسلم ما يجب الله تعالى دون خلقه، أوشك أن يسوِّيه بخلقه وأوشك أن يقع في الغفلة عما يستحقُّه، وربما انحرف به ذلك إلى الإخلال بالتوحيد والعبادة

(١) ينظر: التفسير الوسيط، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ (٣/ ٢٠٢٦).

(٢) ينظر: زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، دار الفكر العربي (٢/ ١٠٠٩).

المستحَقَّة لله تعالى، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين باتِّقائه حق تقاته {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] "أي: التقوى التي تحق له، وهي أن لا يترك العبد شيئًا مما يلزمه فعله، ولا يفعل شيئًا مما يلزمه تركه، ويبذل في ذلك جهده ومستطاعه" (١)، وفي المقابل نعى على المشركين أنهم {مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الحج: ٧٤].

وقد تحدَّث بعض الصحابة ذات يوم فجمع بين اسم الله تعالى واسم النبي ﷺ بحرف العطف الواو، فغضب النبي ﷺ من هذا الصنيع، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه "أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:" أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ "(٢).

وفي هذا المعنى قال بعض السلف:" التوحيد موجَبٌ يوجب الإيمان فمن لا إيمان له فلا توحيد له، والإيمان موجَبٌ يوجب الشريعة فمن لا شريعة له فلا إيمان له ولا توحيد، والشريعة موجَبٌ يوجب الأدب فمن لا أدب له فلا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد "(٣).

وإذا كان الأدب بهذا الوصف فهو جماع العبادة وهو محور الإسلام، ومن التزمه أصاب في عبوديته وأدى ما عليه؛ ولهذا لما سئل ابن سيرين أي الآداب أقرب إلى الله تعالى؟ قال:" معرفةٌ ربوبيته، وعملٌ بطاعته، والحمد لله على السراء والصبر على الضراء "(٤).

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، بو الطيب محمد صديق خان بن حسن، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م (٢/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه أحمد، مسند ابن عباس (٣/ ٣٣٩) حديث رقم (١٨٣٩) وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٣٣١) حديث رقم (٧٨١٥) وقال حسن صحيح ووافقه الذهبي.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٦).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٦).

٢ - أن الأدب طريق إلى مراقبة الله تعالى في السر والعلن:

وذلك جزاءٌ عدل من الله ﷻ أن يفتح عيني عبده الذي يعرف حقه على معرفته وحسن توحيده، وهو سبحانه قد وعد أنه سبحانه يهدي الذين آمنوا سبل السلام، ويزيد الذين اهتدوا هدى، وأنه يجزي على الإحسان إحسانا قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩] {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧] وقد قال أبو علي الدقاق في هذا المعنى:" العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى "[(١)].

وهذا؛ لأن الأدب مع الله نوع مجاهدة ينال به العبد هداية وراء الهداية العامة التي بعث بها محمد ﷺ، وهذه الهداية" هي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة التي تؤدي إلى الهداية في الأحوال المختلفة، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩] وهو المراد بقوله تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: ١٧].

ومن وراء هذه الهداية -كما يقول الغزالي- هدايةٌ أخرى هي النور الذي يشرق في قلب المؤمن بعد كمال المجاهدة، "فيهتدي بها إلا ما لا يهتدى إليه بالعقل... وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى {قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى} [البقرة: ١٢٠]" [(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المعرفة - بيروت (٤/ ١٠٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٠٨).

٣ – الأدب هو سيما الأنبياء والصالحين وهو سبب تحصيل محبة الله تعالى:

لم نعرف نبيًّا من الأنبياء إلا وهو ذو أدب بالغٍ مع الله ﷻ، وذو مراعاة لجلاله وعظيم سلطانه، وقد كان هذا الأدب يصل إلى حد انتقاد الكلام وانتقاء أحسنه، فهذا أيوب عليه السلام كما يصوره قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: ٨٣] قال: لم يقل: ارحمني؛ ولم يقل: إنك أنزلت بي الضر، وهذا نفسه ما قاله إبراهيم عليه السلام { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٧٨ – ٨٠] حيث نسب الهداية والإطعام والسقاية لله سبحانه، ونسب المرض لنفسه، مع أن كل هذا من عند الله ﷻ {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ

قال ابن عطية: "وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} [الكهف: ٧٩] وفي الثانية {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا} [الكهف: ٨١] وفي الثالثة { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا} [الكهف: ٨٢] وإنما انفرد أولا في الإرادة لأنها لفظة عيب، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى لنفسه، إذ هو معنى نقص ومصيبة"(١).

وهذا عيسى في قوله تعالى: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ

(١) تفسير ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ (٣/ ٥٣٧).

شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: ١١٧] ولم يقل: "لم أقل" ؛ رعاية لآداب الخطاب مع الله ﷻ[١].

وقد كان هذا جميعه حال الأنبياء مع ربهم؛ ولذلك نالوا درجة الاجتباء والاصطفاء والتفضيل على العالمين، كما يدل عليه قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٣ – ٨٨].

والأدب بهذه الصفة ثمرته محبة الله تعالى؛ لأنه طاعة لله فيما أمر وتوقٍّ ما نهى وزجر وهو أيضا معاملة له بما يليق به ومراقبة في السر والعلن، وأحرِ بأمرٍ هذا شأنُه وتلك مقتضياته أن يوصل إلى محبة الله تعالى؛ لأنه اتباع للنبي ﷺ، وأخذٌ بما هو أحسن {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١].

قال يحيي بن معاذ: "من تأدَّب بأدب الله تعالى صار من أهل محبة الله تعالى" [٢]؛ وذلك لأن عبادة الله تتضمَّن كمال المحبة، ولا تتحقَّق المحبة إلا باتباع أمر المحبوب، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٩).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٧).

تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادَّعاها[١].

والله سبحانه يحب الأدب ويجزي عليه ما لا يجزي على غيره، كما في حديث عائشة: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»[٢] وقال لأشج بني عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ»[٣]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا»[٤]، فإن لم يكن المسلم أديبًا عاملًا بما يطلبه ربه لم يكن من أهل هذه المحبة ولم يكن قائمًا بالواجب لربه؛ ولهذا قال ابن المبارك "نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم" [٥]، وقيل للحسن البصري قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلًا وأوصلها أجلًا فقال: "التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة مما لله ﷻ عليك" [٦].

فهذه أسباب أهمية الأدب مع الله ﷻ، وهي كما ظهر من أسباب استقامة العبادة وحسن الظن بالله تعالى وكمال الإنابة إليه، وهي أيضا سبب من أسباب محبته ورضوانه وحسن مراقبته في السر والعلن.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م (١/ ١١٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان (١/ ١١٢) حديث رقم (١٥٢) وقال: حديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه (١/ ٤٨) حديث رقم (١٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٨/ ١٢) حديث رقم (٦٠٢٤) ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٤/ ١٧٠٦) حديث رقم (٢١٦٥).

(٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٧).

(٦) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٧).

المبحث الثاني

الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه

المطلب الأول: الأدب مع الله بتوحيده.

أهم أدب مع الله تعالى هو أول واجب وأهم واجب من الواجبات التي أوجبها الله ﷻ، وهو تحقيق التوحيد وإفراد الله ﷻ بالعبادة، فلا ريب أن المسلم لا يكون مسلما بدون التوحيد وبدون شهادة ألا إله إلا الله، ولهذا كان التوحيد هو أهم ما دعا إليه الرسل الكرام وأول ما دعوا إليه، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً يدعوهم إلى توحيده وعبادته، وإفراده سبحانه بالعبادة دون غيره من المعبودات التي شاعت في الأمم المختلفة. قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ الله وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}.

فقد جاء الأنبياء الكرام بالدعوة إلى التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، واجتناب الطاغوت الذي هو الشيطان الذي أول ما يدعو إليه هو الشرك والصد عن سبيل التوحيد(١)؛ ولهذا كانت دعوة الرسل هي النفي والإثبات كما في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ} والنفي والإثبات لإفادة الحصر(٢).

والخطاب للنبي ﷺ وتأويله: "وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي... فأخلصوا

(١) تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (١٧/ ٢٠١).

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٤٢٧).

لي العبادة، وأفردوا لي الألوهية" (١).

فبيّن سبحانه في هذه الآيات عن طريق الإجمال أن دعوة الرسل هي لا إله إلا الله. أي: تحقيق التوحيد وخلع جميع المعبودات من دون الله، ثم جاء التفصيل في مواضع كثيرة، بيانا لما دعا به الرسل أقوامهم كل على حدة فقال سبحانه عن نوح عليه السلام: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩].

وحكى سبحانه عن هود عليه السلام {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [الأعراف: ٦٥].

وعن صالح عليه السلام: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٧٣].

وعن شعيب {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٨٥].

وعن المسيح عليه السلام {وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: ٧٢].

فكل الأنبياء جاءت دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك والشريك عن الله تعالى؛ ولهذا جاء في السنة النبوية عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد" (٢).

---

(١) ينظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ (١/ ٧٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٤/ ١٨٣٧) حديث رقم (٢٣٦٥).

قال النووي: "قال العلماء أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الإخوة لأب من أمهات شتى، وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان قال جمهور العلماء معنى الحديث أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف[١]، وأما قوله ﷺ ودينهم واحد فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعا" [٢].

وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين[٣] كما جاء في عن معاذ رضي الله عنه، قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ »، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: «لا تبشرهم، فيتكلوا»[٤].

---

(١) تختلف الشرائع في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. ينظر: تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م (٣/ ١٢٩).

(٢) شرح النووي على مسلم، الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ (١٥/ ١١٩).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣١٦).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار (٤/ ٢٩) حديث رقم (٢٨٥٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (١/ ٥٨) حديث رقم (٣٠).

وتؤكد السيرة النبوية على هذه الحقيقة المهمة وهي أن التوحيد هو مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبي -ﷺ- لرسوله معاذ بن جبل -رضي الله عنه- وقد بعثه إلى اليمن - «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

وهذا لأهمية التوحيد وخطره فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما في حديث أبي ذر "ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة" [2] فالتوحيد في الإسلام هو أول الأمر وآخره[3].

ومن سوء الأدب أن يعبد الإنسان ربه بلا توحيد بأن ينكره استحقاقه للعبادة أصلا أو يشرك معه غيره، وعاقبة سوء الأدب هذا هي حبوط العمل وعدم قبوله فقد قال سبحانه لخيرة خلقه: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥].

---

(١) أخرجه صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (٢/ ١٠٤) حديث رقم (١٣٩٥) ومسلم (١/ ٥٠)، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ٥٠) حديث رقم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب الثياب البيض (٧/ ١٤٩) حديث رقم (٥٨٢٧) ومسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات مشركا دخل النار (١/ ٩٥) حديث رقم (٩٤).

(٣) ينظر: مدارج السالكين (٣/ ٤١١).

فهذا أكرم الخلق ﷺ ينذره ربه بأن لو فرض أنه أشرك ليحبطن عمله[١] وهو من هو في حسن عبادته وكمال إخباته فكيف من هو غيره، وهذا خطاب مع الرسول ﷺ، والمراد منه غيره. وقيل: هذا أدب من الله ﷻ لنبيه وتهديد لغيره، لأن الله تعالى عصمه من الشرك[٢].

وبعدما قص طرفا من سيرة الأنبياء والمرسلين قال: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٣ – ٨٨]

والشرك من أسوأ الظلم فهو ظلم للنافس وظلم للتوحيد، والتوحيد هو أصل العدل؛ إذ هو إنصاف النفس وفكاكها من النار وتفويض لله وشكر له على إنعامه وإفضاله؛ ولهذا سمى الله ﷻ الشرك طاغوتا ليبين موقعه من الظلم فإن الطاغوت هو الطاغية الطاغوت

(١) ينظر: تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ (٥/ ٤٨).

(٢) ينظر: تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ (٧/ ١٣٠).

الذي تجاوز حده وتعدى طوره[1]، ولهذا كان الشرك نهاية الظلم {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]

وقد بينت السنة النبوية أن أسوأ الأدب مع الله هو جحد حقه في التوحيد ونسبة الخير إليه ولو بكفر نعمته وتجاهل قيوميته؛ فعن زيد بن خالد الجهني، أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب"[2].

قال النووي رحمه الله: "فاختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين:

أحدهما: هو كفر بالله ﷻ سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام قالوا وهذا فيمن قال ذلك معتقدا أن الكوكب فاعل، مدبر، منشئ للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر الحديث قالوا وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقدا أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارا بالعادة فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا،

---

(١) ينظر: معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ (١/ ٢٦٩) والمفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ (ص: ٥٢٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الآذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (١/ ١٦٩) حديث رقم (٨٤٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (١/ ٨٣) حديث رقم (٧١).

فهذا لا يكفر. واختلفوا في كراهته والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فيساء الظن بصاحبها، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب أصبح من الناس شاكر وكافر" [(١)].

وهذا لأن معرفة وجود الله وبديع صنعه وسعة تصرفه في السماوات والأرض أمر تقر به الفطرة البشرية إذا لم تتلبس بكبر؛ ولهذا أقر به الكفار {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت: ٦١]

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [العنكبوت: ٦٣]

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [لقمان: ٢٥].

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٦١).

المطلب الثاني: نسبة الخير إليه والشر إلى غيره.

من أجل الآداب مع الله ﷻ عدم نسبة الشر إليه ﷻ وكان من دعائه ﷺ "والشر ليس إليك" (١).

أي: ليس مضافا إليك، وهذا أدب منه ﷺ مع رب العز والجلال فإن كل ما في الكون مخلوق لله ﷻ ولا يكون في ملكه تعالى إلا ما يشاء ويريد، وأدلة الكتاب والسنة ناطقة بذلك فيقول المولى تبارك وتعالى: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦](٢).

قال القرطبي: "والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه. والأحسن أن تكون" ما "مع الفعل مصدرا، والتقدير والله خلقكم وعملكم وهذا مذهب أهل السنة: أن الأفعال خلق لله ﷻ واكتساب للعباد. وفي هذا إبطال مذاهب القدرية والجبرية. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال:" إن الله خالق كل صانع وصنعته "ذكره الثعلبي(٣). وخرجه البيهقي من حديث

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤) حديث رقم (٧٧١).

(٢) ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ٢٠٦).

(٣) قال الثعلبي في الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن إبراهيم الثعلبي، دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م (٨/ ١٤٩): "فقال لهم إبراهيم على وجه الحجاج: أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون؟ وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله ﷻ حيث قال: وما تعملون على [أنها] مكتسبة للعباد حيث أثبت لهم عملا، فأبطل مذهب القدرية والجبرية بهذه الآية، وقال رسول الله ﷺ: «إن الله خالق كل صانع وصنعته». فلم يسنده إلى أبي هريرة ولم أقف عليه من رواية أبي هريرة، فالمروي من رواية حذيفة ﷺ: أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٤٦) والحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٨٥) حديث رقم (٨٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله ﷻ صنع كل صانع وصنعته "[١] فهو الخالق وهو الصانع سبحانه" [٢].

وأحكام هذا الأدب قائمة على ركيزتين:

الركيزة الأولى: أن الله ﷻ خالق كل شيء لكن الخلق يختلف عن الإرادة، أو أن إرادة الشيء كونا وقدرا غير إرادته شرعا وأمرا، فهناك الأمر الشرعي وهناك الوجود القدري، فلكل من الإرادتين مجال وعمل، فالإرادة الكونية القدرية لا تعني المحبة والرضا، فالله ﷻ خالق كل شيء بما في ذلك الشرور والمعاصي التي تصدر من العباد، لكنه سبحانه لا يرضاها ولا يأمر بها، بل ينهى عنها ويعاقب عليها ويحذر منها قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥] {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمر: ٧]

وإن عدم رضاه بالمعصية ولا حبه للفساد من جهة أنه لا يأمر بهما ويعاقب عليهما، لا من جهة أنهما يكونان في ملكه بغير إرادته مغالبة له، فهما مرادان لله تعالى كونا لاختيار المكلف لهما، وهما غير مرادان شرعا؛ لأنه لا يأمر بالفساد ولا الكفر، وإذا حاسب العبد فقد حاسبه على اختياره مع أن كل ذلك لا يكون في ملكه قهرا له، بل لو شاء لأهلك الناس

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٧٤) حديث رقم (٣٧) والاعتقاد للبيهقي (ص: ١٤٤) ولقضاء والقدر للبيهقي (ص: ١٧٠) حديث رقم (١٣٣) وشعب الإيمان (١/ ٣٦٣) حديث رقم (١٨٧).

(٢) تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م (١٥/ ٩٦).

جميعا فضلا عن أن يمنعهم فعلا من أفعالهم[1].

ولهذا فإنه سبحانه ينفذ الوعد والوعيد وهذا لا يكون لمجرد موافقة الإرادة؛ إذ لا تسمى موافقة الإرادة طاعة ولا مخالفتها معصية؛ إذ الإرادة كامنة لا تعرف بل يكون المطيع مطيعا لموافقته الأمر ويكون عاصيا لمخالفته؛ ولهذا يقال في العرف: فلان مطاع الأمر. ولا يقال: فلان مطاع الإرادة ومنه قوله- تعالى- إنباء عن قول موسى لهارون: عليهما السلام: {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه: ٩٣] ولم يقل إرادتى[2].

الركيزة الثانية: هي تحقيق الأدب مع الله ﷻ، فهو سبحانه خالق كل شيء من أعيان وأعراض وجواهر، لكنه سبحانه يخاطب بما يليق به ويناسب جلاله وكماله وجماله،

يقول أبو منصور الماتريدي: "ولا نجيز إضافة الحسد إليه بحال ولكن نقول: خلق فعل الحسد من الخلق، وكذلك يقال في الأنجاس، والأقذار، والحيات والعقارب ونحوها: إنه لا يجوز أن تضاف إلى الله تعالى فيقال: يا خالق الأنجاس والحيات والعقارب، وإن كان ذلك كله خلقه، وهو خالق كل شيء. فعلى ذلك، نقول بخلق فعل الحسد، وفعل الكفر من

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م (١٧/ ٦٤).

(٢) انظر: أبكار الأفكار في أصول الدين، علي بن محمد الآمدي، علي بن محمد بن سالم التغلبي، تحقيق: أ. د. أحمد محمد المهدي، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، الطبعة: الثانية / ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م (٢/ ٤٨٧).

العبد، ولا نجوز أن يضاف إلى الله تعالى" [١].

فالشر لا يضاف إلى الله سبحانه أدبا منا في ذلك فما من شيء إلا وهو مقهور مخلوق له، ولا يكون في سلطانه غير ما يريد لكن الأدب معه اقتضى ذلك وهذا معنى قوله ﷺ أي: "لا يضاف الشر إليك فتخاطَب به تأدبا لك، فلا يقال: يا قاتل الأنبياء، ويا مضيِّق الرزق، وإنما تخاطَب بما يليق بالأدب، فيقال: يا كريمُ يا رحيمُ. ويقول المذنب: ظلمتُ نفسي، ولا يقول: أنتَ قضيت؛ لأنه كالمناظرة. والمراد من العبادة الذل للمعبود".

وقد كان الأنبياء الكرام يعرفون أن الله خالق كل شيء، ومع ذلك لم ينسبوا إليه شيئا من الشر مراعاة لعظيم قهره وكمال جلاله.

ولهذا المعنى لما قام آدم مقام العبودية قال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣] فلما التقى بموسى "تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق" فقال رسول الله ': «فحج آدم موسى مرتين»[٢].

وهذا نبي الله إبراهيم -عليه السلام- وهو الذي حاج قومه بأن قال لهم {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٥، ٩٦]، والشاهد في قوله ﷺ {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٥] الذي يدل على أنه ﷺ يعلم أن الله تعالى خالق كل شيء وأن كل ما ملكه من خلقه وتدبيره بإرادته الكونية القاهرة، عندما تحدث عن الله ﷻ {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

---

(١) تفسير الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م (١/ ٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، (٨/ ١٢٦) حديث رقم (٦٦١٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ﷺ (٤/ ٢٠٤٢) حديث رقم (٢٦٥٢).

يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٧٨ - ٨٢]

فنسب لربه كل خير وصرف عنه كل شر، نسب إليه الخلق، والهداية، والإطعام، والإسقاء، ثم نسب لنفسه المرض، ثم عاد ونسب إلى ربه نعمة الشفاء، وإلإماتة، والإحياء، وأفرده بالإنعام بالمغفرة، التي نسبها إلى نفسه، وهذا أدب عالٍ لا يصدر إلا من نبي يعرف جلال العبودية وكمال القيومية ويلتمس سلطان القهر في كل شيء، ومن هنا عرف كيف يقيم في مقام العبودية فيصف الله بما يستحقه ويصرف عنه ما لا يليق بكماله وعظم سلطانه.

قال الرازي: "أضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله، فلم يقدح ذلك في كونه تعالى خالقا للمرض والشفاء، بل إنما فصل بينهما رعاية الأدب" (١).

ومن مواقف الأدب مع الله من جانب الرسل والصالحين ما حصل من الرجل الصالح الخضر الذي لقيه موسى في رحلته المعروفة التي قصتها سورة الكهف.

قال الخضر: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} [الكهف: ٧٩]، فنسب العيب إلى نفسه. وفي المقابل نسب الخير إلى الله ﷻ فقال في تبرير بناء الجدار: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [الكهف: ٨٢]. فنسب الإرادة إلى الله ﷻ لأنها خير.

قال القرطبي: "إن قال قائل: كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله

---

(١) تفسير الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ (١٠/ ١٤٨).

تعالى، وقال في خرق السفينة:" فأرادت أن أعيبها "فأضاف العيب إلى نفسه؟"

ثم ذكر في وجوه ذلك منها: أنه "لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠] فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح، وهذا كما قال تعالى:" بيدك الخير "[آل عمران: ٢٦] واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شي قدير، وهو بكل شي خبير" (١).

وهذا عبد الله أيوب ينسب المس إلى الضر ثم ينسب كشفه إلى ربه فيقول: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]

فلم يقل عليه السلام قدرت عليَّ البلاء ولا أنزلت بي الضر بل استعار الضر للمس ونسب لربه سبحانه كشف الضر وإزاحة البلاء أدبا منه مع الله سبحانه وتعالى، وفي آية يذكر المولى تبارك وتعالى أنه عليه السلام {نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [ص: ٤١]

فنسب المس للشيطان وفي كل ذلك أدب مع الله تعالى و "كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع النصب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السلام: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٣٩).

الْجَاهِلِينَ} [يوسف: ٣٣]" (١).

فكل من النبيين الكرام أسند البلاء إلى الخلق كما أسند أيوب المس إلى الضر وإلى الشيطان وطلب من الله رفعه، وكما أسند يوسف الكيد للنسوة وطلب إلى الله صرفه، فأنعم بهما من نبيين كريمين.

وهذا الأدب من صلب العقيدة الصحيحة والمولى تبارك وتعالى يعلمنا إياه في فاتحة الكتاب التي تقرأ على مدار اليوم في الصلوات المتلاحقة فيقول سبحانه في الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧]

فجاء قوله تعالى: {الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} بلفظ الفعل، و{غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ} بلفظ الاسم ولم يقل "صِرَاطَ المنعم عليهم" كَما قال {غَيْرِ المغضوب} وذلك لقصد التنبيه على التأدب مع الله تعالى بنسبة الإنعام إليه، وعدم نسبة الشر إليه، بل أتى به بلفظ المفعول الذي لم يتم فاعله، قال ابن عرفة: "فلم ينسب الغضب إليه على معنى الفاعلية، وإن كان هو الفاعل المختار لكل شيء لكن جرت العادة في مقام التأدب أن ينسب للفاعل الخير دون الشر" (٢).

ولهذا قال القاضي العماد: "من (ألطاف) الله أنه إذا ذكر نعمة أسندها إليه فقال: {وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: {وإذا مرضت فهو يشفين}" (٣).

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ (٢٣/ ٢٧٠).

(٢) تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي، الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م (١/ ١٠٤).

(٣) تفسير ابن عرفة (١/ ١٠٤).

أما خواتيم الكتاب العزيز فتأتي مؤكدة هذا الأدب كما جاء في سورة الناس وهي آخر ما حمله المفصل وفيها قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)} [الناس: ١ - ٦]

والشاهد في أنه نسب للشيطان الشر فقال: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)} في حين أنه نسب الاستعاذة للرب القادر القهار. وفي نفس معنى هذه الآيات جاءت آيات سورة الفلق لتنسب الشر لخلقه من السحرة والحسدة وتثبت القاهرية للرب القوي المتعال.

ومن الآيات التي تقرر هذا الأدب لله ﷻ قوله تعالى على لسان الجن {وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ} [الجن: ١٠]. والكلام على لسان الجن وجاء فيه نسبة إرادة الشر على البناء للمجهول في حين جاءت نسبة الرشد لله تعالى أدبا منهم معه.

قال في التحرير والتنوير: "فأسند في الآية فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى مع أن مقابله أسند إليه بقوله: أم أراد بهم ربهم رشدا، جريا على واجب الأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه" (١).

ومن شواهده أيضا قوله تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١١٥].

قال الطيبي: "(فلن يكفروه) تعريض بكفرانهم نعمته، وأنه تعالى لا يفعل مثل فعلهم، وجيء به على لفظ المبني للمفعول لأمرين: لتنزيهه عن إسناد الكفران إليه، كقوله تعالى: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: ١٠]، وليأتي به

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣١).

على لفظ الكبرياء والعظمة، نحو: {وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} [هود: ٤٤]" [١].

والحاصل أن آيات القرآن الكريم والسنة النبوية تظاهرا على أن من أوجب الآداب مع الله تعالى نسبة الخير والنعماء إليه، وتنزيهه سبحانه عن الشر وأسبابه فالخير بين يديه والشر ليس إليه.

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الحسين بن عبد الله الطيبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م (٤/ ٢٢٥).

المطلب الثالث: وصفه سبحانه بما يليق به وتنزيهه عن كل نقص.

من الأدب اللائق بالله تعلى وصفه سبحانه بما يليق به من صفات الجلال ونعوت الكمال والإخبار بما يليق به، ويلزم من ذلك معرفة ما يجب له سبحانه وما يستحيل عليه وما يجوز له، وذلك داخل في الإيمان الواجب الذي يقتضي "ترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه ﷻ من جميع النقائص" (١).

فهو سبحانه ذو الكمال والجلال وهو سبحانه متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص (٢). كما دل عليه اسمه القدوس. أي: "المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال" (٣)، أو "المنزه عن سمات النقص والعيوب وموجبات الحدوث ومن تقدست عن الحاجات ذاته وتنزهت عن الآفات صفاته" (٤).

فلا عجز يلحق بذاته ولا نقص يعتري صفاته فله على خلقه التقديس والتنزيه بما يناسب عظيم قوته وكمال صفاته وسعة ملكه وعظمة جبروته.

وقد زل أهل الكتاب في هذا الباب زللا فاحشا، فنسبوا لله تعالى ما لا يليق به؛ فاليهود جعلوه جسما وجسدا وأدخلوه في منازلة مع يعقوب وليتهم وقفوا عند هذه الخرافة، بل بالغوا حتى جعلوا الفوز في هذه المنازلة ليعقوب من دونه، والذي استطاع أن يحبس ربه بقبضة يده، حتى أوشك الفجر على الطلوع ولولا توسلات الرب ما سمح يعقوب بالإفراج عنه.

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٨).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ١١٥).

(٤) أسماء الله الحسنى، حسنين محمد مخلوف، مكتبة القاهرة، بدون بيانات (ص: ٣٧).

جاء في سفر التكوين [٣٢: ٢٤ -٢٨]: "فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال أطلقني؛ لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له ما اسمك فقال: يعقوب، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت" .

ودعا يعقوب المكان فنيئيل أي «وجه الإله» لأنه قال: «إني نظرت الإله وجهًا لوجه، ونجَّيت نفسي» (تكوين ٣٢: ٣٠).

وهذا من ترهات اليهود التي استعاروها عن الحضارات الوثنية، فالقصة تشبه من بعض الوجوه قصصًا مماثلة في الحضارات الوثنية مثل الحضارة اليونانية، ففي إلياذة هوميروس يجرح ديوميدس الرب آريس بمساعدة أثينا، ولكن يعقوب يهزم ربه دون عون أو مساعدة(١).

كما جعلوه فقيرا يقترض منهم على الحقيقة لفقره وحاجته فقالوا: {يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ}، وقد رد الله ﷻ على هذه الجريمة بقوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: ٦٤].

وقد تضمن الرد دعاء عليهم بالبخل والنكد أو بالفقر والمسكنة، أو بغل الأيدي بالأسر في الدنيا أو إلى النار في الآخرة جزاء من جنس قولهم الذميم، ثم ثنى بإثبات سعة جود الله تعالى وما ينبغي الاعتقاد فيه أدبا مع جلال صفاته وكمال ذاته، فهو سبحانه "يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء" فهو سبحانه مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري (١٠/ ٣٦٠).

ومقتضى حكمته، لا على تعاقب سعة وضيق في ذات يد[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ، قال: "يَدُ اللهِ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ" [٢].

وقد توعدهم على نسبة الفقر إلى ذاته العلية عذابا أليما في الآخرة جراء هذا المنكر العظيم فقال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١]

وقد استقرأ الطبري الآثار التي وردت في تفسيرها وكلها واردة عن اليهود، وأنهم لما نزل قول الله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥] قالوا ما دام يستقرض منا فإنه فقير إلينا ونحن أغنياء.

ومما جاء في ذلك ما رواه الطبري بسنده إلى السدي قال: "لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء" ، قالها فنحاص اليهوديّ من بني مَرثد، لقيه أبو بكر فكلمه فقال له: يا فنحاص، اتق الله وآمن وصدِّق، وأقرض الله قرضًا حسنًا! فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا فقير يستقرِضنا أموالنا! وما يستقرض إلا الفقير من الغني! إن كان ما تقول حقًّا، فإن الله إذًا لفقير! فأنزل الله ﷻ هذا، فقال أبو بكر: فلولا هُدنة كانت بين النبي

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥] (٩/ ١٢٢) حديث رقم (٧٤١١) ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٢/ ٦٩١) حديث رقم (٩٩٣).

ﷺ وبين بني مَرثد لقتلته[1].

وروي أنها في حيي بن أخطب أو غيره، والشاهد أن اليهود نسبوا الفقر إلى الله تعالى فذمهم على ذلك، وتوعدهم بعذاب جهنم، وذلك عدل منه ﷻ وجزاء وفاق على ما صدر منهم من وصف الله بما لا يليق به وبما فعلوه من جرائم أخرى[2].

ومن سوء أدب اليهود والنصارى مع الله: أنهم نسبوا له الولد فجعلوا عزيرا ابنا له كما جعلت النصارى عيسى ابنا له قال تعالى في ذلك: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} [التوبة: ٣٠].

كما ادعوا أنهم أنفسهم أبناؤه وأحباؤه من دون العالمين، وبنوا على ذلك أنهم الشعب المختار قال تعالى مصورا سوء أدبهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} وقد رد ﷻ عليهم بقوله: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: ١٨]

قال الرازي: "وجملة الكلام أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلا على سائر الخلق بسبب أسلافهم الأفاضل من الأنبياء حتى انتهوا في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. ثم إنه تعالى أبطل عليهم دعواهم وقال:" قل فلم يعذبكم بذنوبكم "... ثم قال تعالى:" ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما "بمعنى: من كان ملكه هكذا وقدرته هكذا فكيف يستحق البشر الضعيف عليه حقا واجبا؟ وكيف يملك الإنسان الجاهل بعبادته الناقصة ومعرفته القليلة عليه دينا؟. إنها كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٤٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤٤٧).

إلا كذبا"[١].

أما النصارى فجعلوه ثالث ثلاثة الأب والأم والروح القدس فمرقوا من الدين بسوء الأدب قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} [المائدة: ٧٣] ونسبوا له الولد {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: ٣٠] وجعلوا بين الناس وبين الإيمان به واسطة وحلقة هي حلقة الكهنة والقساوسة الذين أطاعوهم وأذعنوا إليهم فأفاضوا علي المسيح وعليهم من صفات الله ما انتقصوا به مما يجب لله وهو انفراده بالطاعة، فكانوا بحق في حكم من عبد القساوسة الوسطاء قال تعالى ناعيا على النصارى ذلك: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١].

وقد استشكل الصحابي الجليل عدي بن حاتم وصف الله إياهم بعبادة الأحبار والرهبان، فقال: "إنا لسنا نعبدهم" ، فقال النبي ﷺ: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ » قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[٢].

ويشدد الله ﷻ على هذا الأدب فينهى عن الإلحاد في أسمائه وصفاته فيقول سبحانه:

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٢) حديث رقم (٢١٨) والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي، فإنه غير جائز له أن يقلد أحدا من أهل دهره، ولا أن يحكم أو يفتي بالاستحسان (١٠/ ١٩٨) حديث رقم (٢٠٣٥٠). وأخرجه الترمذي، تفسير القرآن، سورة التوبة (٥/ ٢٧٨) حديث رقم (٣٠٩٥) وفيه: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه» قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته ل ح د فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، وقد ذكر ابن القيم ضروبا وأشكالا للإلحاد في أسماء الله تعالى فمنها: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا ومنها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه وقولهم: {يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ}(١).

وعلى لسان نبيه ﷺ ينهى عن سب الدهر؛ لأنه سبحانه من يقلب الليل والنهار كما جاء في حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله ﷻ: "يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما"(٢).

وقد كان اعتقاد الجاهلية: أن الدهر هو الذي يفعل الأفعال، ويذمونه إذا لم تحصل أغراضهم: فأعلمهم النبي -ﷺ-: أن الله يفعل كل شيء، فإذا سبوا الدهر من حيث: إنه الفاعل، ولا فاعل إلا الله، فكأنهم سبوا الله تعالى، فلذلك قال الله تعالى: (يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر) أي: أنا الذي أفعل ما ينسبونه للدهر، لا الدهر، فإنه ليل ونهار، وأنا

(١) ينظر: بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١/ ١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٢) حديث رقم (٢٢٤٦).

أقلبهما؛ أي: أتصرف فيهما بالإطالة، والإقصار، والإضاءة، والإظلام[١].

وقد جاء سب الدهر مطلقا حتى يسد الباب أمام نسبة الشر إلى الدهر لأن الدهر ليل ونهار وذلك في يد الله يقلبهما حيث يشاء ويجعل فيهما ما يشاء من الأحداث والمقادير، فيؤول الأمر لسب الله ﷻ وذلك أدب لا يليق بجلاله لأن أفعاله كلها خير كما سبق.

وفي صحيح البخاري من حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: قال الله: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا»[٢].

وقد دل هذا الحديث الإلهي على أن الانحراف في الاعتقاد يؤول إلى تكذيب الله وشتمه تعالى عن ذلك علوا كبيرا، فالذي أنكر البعث كذب خبر الله وأخطأ في تصور قدرته التي يهون عليه البعث لأنه يكون من مادة سابقة بخلاف الخلق الأول الذي يكون من عدم، والذي نسب لله الولد شتم الله ﷻ؛ حيث شبهه بالخلق وأثبت حاجته إليهم، ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النوع فلو كان البارئ تعالى متخذاً ولداً لكان مستخلفًا خلفًا يقوم بأمره

(١) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م (٥/ ٥٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه} [البقرة: ١١٦] (٦/ ١٩) حديث رقم (٤٤٨٢).

بعد عصره، فيلزم زواله وفناءه سبحانه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1].

والخلاصة: أن من الأدب اللازم لله تعالى وصفه بما يليق به، وتنزيهه عن النقص وعن مشابهة المخلوقين في حين أن إغفال هذا الأدب فيه مما يؤدي إلى إسناد النقص إليه ﷻ ويؤول إلى شتمه وتكذيبه، وكل هذا يندرج في باب الإلحاد في أسمائه ويدخل في باب أذية الله تعالى المنهي عنها في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [الأحزاب: ٥٧]

قال القرطبي: "اختلف العلماء في أذية الله بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود لعنهم الله: وقالت اليهود يد الله مغلولة. والنصارى: المسيح ابن الله. والمشركون: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه" [2].

تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبير.

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م (١/ ٨٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٧).

نتائج الدراسة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات فقد يسر الله بفضله وعونه إتمام هذه الدراسة التي تتعلق بموضوع شديدة الخطورة هو موضوع الأدب مع الله ﷻ وفي ضوء ما سبق تتقرر النتائج الآتية:

- يدور مفهوم الأدب حول اتِّباع الأخلاق الحميدة والخصال الفاضلة في معاملة الخالق والمخلوق، ومراعاة أصول اللياقة بكل جانب من جوانب الحياة، وتحري ما يُحمد من الأقوال والأفعال والخصال والشمائل.
- الأدب مع الله هو الخلق اللائق بالله سبحانه اعتقادا ومعاملة وظنا واتباعا، ليشمل ذلك ما يليق بحقه سبحانه في جانب الاعتقاد وفي جانب المعاملة الباطنة والتعبد الظاهر، إلى جانب حسن الظن به سبحانه والتوكل عليه، ويشمل هذا الأدب حقائق كثيرة ومتنوعة وأخلاق متعددة.
- تتجلى أهمية الأدب مع الله بالنسبة للمسلم في أنه من أسباب استقامة العبادة وحسن الظن بالله تعالى وكمال الإنابة إليه، وهو أيضا سبب من أسباب محبته ورضوانه وحسن مراقبته في السر والعلن.
- يتعلق الأدب مع الله ﷻ بتوحيده وتنزيه، فالتوحيد هو أهم ما دعا إليه الرسل الكرام وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً يدعوهم إلى توحيده وعبادته، ويتنافى مع كمال التوحيد نسبة نسبة الشر إليه ﷻ، والأدب عكسه، وكان من دعائه ﷺ "والشر ليس إليك" .
- من الأدب اللائق بالله تعلى وصفه سبحانه بما يليق به من صفات الجلال ونعوت الكمال والإخبار بما يليق به، كما أن حسن الظن بالله تعالى من أوجب الواجبات وآكد الآداب؛ لأن حسن الظن إيمان بسعة رحمة الله وعظيم مغفرته.

ثانيا: التوصيات:

❖ توجيه البحوث نحو دراسة الأدب مع الرسول ﷺ من خلال ما قرره القرآن الكريم وقررته السنة النبوية وأشار إليه العلماء الأجلاء.

❖ الاهتمام بجوانب الأدب مع الصحابة الكرام والتنويه بضرورة الكف عما وقع بينهم في سالف الدهر مما يؤدي البحث المغرض فيه إلى إساءة لأشخاصهم وربما أساء إلى النبي ﷺ.

❖ عقد مؤتمرات علمية وأكاديمية للتنويه بفضل الآداب الشرعية وأثرها في الجانب الروحي للدعوة الإسلامي وكيفية استغلالها في تحسين الصورة عن الإسلام وفي الدعوة إلى الله.

المصادروالمراجع

١- أبكار الأفكار في أصول الدين، علي بن محمد الآمدي، علي بن محمد بن سالم التغلبي، تحقيق: أ. د. أحمد محمد المهدي، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، الطبعة: الثانية / ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٤م.

٢- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٣- أسماء الله الحسنى، حسنين محمد مخلوف، مكتبة القاهرة، بدون بيانات.

٤- الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٥- الاعتقاد، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ه.

٦- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة: الثانية.

٧- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٨- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م.

٩- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

١٠-التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ -١٩٨٣م.

١١-تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

١٢-تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي، الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م.

١٣-تفسير ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

١٤-تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.

١٥-تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

١٦-تفسير الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٧-تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٨-تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

١٩-تفسير الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢٠-التفسير الوسيط، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

٢١-الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٢٢-زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٢٣-سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٩٩٨ م.

٢٤-السنن الكبرى، للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٣ م.

٢٥-شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

٢٦-شرح النووي على مسلم، الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ه.

٢٧-شعب الإيمان، للبيهقي، المحقق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ه.

٢٨-الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت

٢٩-صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير اليمامة تحقيق: د: مصطفى ديب البغا، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة (١٤٠٧ هـ).

٣٠-صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. عمدة القاري شرح عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد بن موسى العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣١-العناية شرح الهداية، أكمل الدين البابرتي، دار الفكر.

٣٢-فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ هـ.

٣٣-فتح البيان في مقاصد القرآن، بو الطيب محمد صديق خان بن حسن، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

٣٤-فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الحسين بن عبد الله الطيبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

٣٥-القضاء والقدر، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

٣٦-كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت

٣٧-الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن إبراهيم الثعلبي، دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م.

٣٨-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

٣٩-مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م.

٤٠-مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

٤١-مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

٤٢-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، المكتبة العلمية – بيروت.

٤٣-معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٤-المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

٤٥-المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

٤٦-المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم،: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

٤٧-مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

الملخـــص ١٧٩

المقدمـــة ١٨١

المبحث الأول: مفهوم الأدب وأهمية الأدب مع الله للمسلم. ١٨٤

المطلب الأول: في بيان مفهوم الأدب ١٨٤

المطلب الثاني: أهمية الأدب ومع الله للمسلم. ١٩٠

المبحث الثاني: الأدب مع الله في التوحيد والتنزيه ١٩٧

المطلب الأول: الأدب مع الله بتوحيده ١٩٧

المطلب الثاني: نسبة الخير إليه والشر إلى غيره. ٢٠٤

المطلب الثالث: وصفه سبحانه بما يليق به وتنزيهه عن كل نقص. . ٢١٣

نتائج الدراسة ٢٢١

المصادر والمراجع ٢٢٣

فهرس موضوعـات البحث ٢٢٩